

سمات في ديوان "تفاصيل الحنين"*

(مقاربة نقدية من منظور نظرية التلقي)

"تفاصيل الحنين" هو عنوان لديوان شعر يفصح عن حالة الشاعر وتجربته الإبداعية، ويترجم اللحظة الإبداعية بكل تفاصيلها في لغة تستند إلى الخرق والإيجاز وتتكئ على الإبهام بألفاظ غزلية تستهوي المتلقي فتدريه أسيرا في شبكة القوافي.

هي تفاصيل عن التجربة الشعرية، وعن ولادة قصيدة تضع نفسها بين يدي قارئها، فماذا سوف يقع عليه القارئ من سمات مميزة خاصة؟

1- الأصالة والارتباط بعمود الشعر الذي تسيطر عليه إيفاعات الكامل والبسيط والقوافي الموصولة¹، ولم يخالف القدماء في مطالع قصائدهم إذ وردت كل قصائد الديوان مصرعة، وهو يعي هذه الظاهرة و يلتزمها في قصائده العمودية كقوله:

عذبتني استلذذت عذابيَا يا برتقالا لا يشتهي لي مايبا
وقوله: يا طفلي احترقي كالنار بالنار يا طفلي اعترفي يوما بأنهارى
وقوله: يا مي هيامك صار ماء شعورى والسحر زرع نشوتي وحبوري ...

2- اللغة: خارقة حارقة

لغة ديوان "تفاصيل الحنين" تجاوزت كل الخروافات الإسنادية عندما يعمد الشاعر إلى التصوير، ولم يعد ذلك الذي يهتم بتتميق الكلام وتدقيق البجور والتحكم في الأوزان لبناء الصورة الشعرية وتحقيق دلالاتها، بل أصبحت له رؤية نافذة إلى العمق تتخذ من الاستفزاز البلاغي والنحوي ما يجعل جمهور الشعر أكثر التحاما بقصائده فهو لا يعمل فقط على جلب المتلقي ليتذوق الشعر بل يعمل على أسره بالكلمة والصورة وإن لم أقل بالمشهد ليجعل من هذا المتلقي وهذا الجمهور المتذوق، قارئاً ومتلقياً يتبنى قضايا الشاعر بل و متمرداً في الرؤية الفنية حيث لا يقبل إلا ما هو مثير ومستفز ومتمرد على كل ما هو مألوف ومعروف. وخير ذلك مقدمات القصائد التي يعتني بها أشد الاعتناء في بنائها اللغوي وتشكيلها الفني. وأحيانا أخرى يضيف عليها طابع المحاورة الذي يمنحها الحركة التي تبعث فيها دبيب الحياة، ولولا الحركة لما كانت الحياة ولذلك قلت إن صورته تتحول إلى مشاهد كما في قصيدة "قراءات بجانب العمر"

قالوا الهوى ... قلت هل تخفى الأسارير لولا هواها لما غنت شحارير؟؟

لو قال لي سحرها صفني على عجل إن رامت الوصف في الشعر الأعاصير

لقلت عفوا ... فوصف السحر منقصة لا الكيل يكفي ولا تكفي المقادير ...

لنتأمل هذه الأبيات التي تجاوزت فيه كل العلاقات الإسنادية وكأنك تقرأ قصيدة من الشعر الحر

يا التي أسدلت عطرها في دمي يا التي أشعلت بالقوافي فمسي

يا التي وقعت جرحها وادعت حينما أصبحت وجهة المغرم

يا التي أسكرت قلبها بالمننى فاكتفى شاعري بالشذا الموهم

يجد القارئ منذ الوهلة الأولى لقراءته هذه الأبيات أن هناك شيء غير طبيعي يتمثل في الخرق النحوي، حيث لا ينادي معرفاً بالياء إلا مع الله أي مع لفظ الجلالة كقولك: "يا الله". أي اللهم، أما عدا ذلك فيؤتى بوسيط بين ياء النداء والمعرف

* الموضوع منشور كتقديم للديوان. الطبعة الأولى 2005
¹ - الوصل بالياء: ورد في ثمانية قصائد. وبالواو في خمسة قصائد، وبالالف في ثلاثة قصائد.

ويكون لفظ أيها أو أيتها كقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا". وقوله: "يا أيها النفس المطمئنة". أما ما ورد "يا المؤمنين، ويا العباس" مثلا فهو ليس بفصيح وإن وجد في اللغات القديمة فبقلة، ورغم ذلك فالشاعر قد خرق هذه القاعدة اللغوية محتما ربما بقاعدة "الضرورة الشعرية" وحول القاعدة إلى قانون نحوي قد تنفر منه الأذن في بداية سماعها لكن عندما تتكرر و عن قصد قد تصبح بمثابة الشاهد النحوي لا أقول: الشاذ وإنما الذي يقاس عليه.

للشاعر قاموس لغوي قد يتراءى للقارئ بأنه بسيط، لكنه يفجر به معان وصور فنية رائعة الجمال تستحوذ على المتلقي وتجعله يتابع ويقول: هل من مزيد.

يا التي أسدلت عطرها في دمي يا التي أشعلت بالقوافي فمــــي
فلو قال: "يا التي أسكبت عطرها في دمي" لكانت الصورة باهتة ولم تتعدى وعاءين: واحد به عطر، والثاني فيه دم، ووادة تقوم بعملية كيميائية تمزج هذا في ذلك، إلا أن الشاعر حولها من هذه العملية البسيطة إلى عملية معقدة، إذ نفث فيها من روحه الفنية ما يمنحها حركة ووقعا في النفس بفعل السدل أي أرخت كل مالها وما فيها من عطر في دمه فتجاوزت كل المعايير وجميع أدوات الأقيسة والكيل، حتى أثارت فيه لهبا لا يدركه إلا من بناره اكتوى، كالشاعر. فأى نار تشعل المرء غير نار الفن والجمال.

لقد اكتملت الروعة بفعل التوازي الهندسي بين الكلمات في مطالع المصراعين معا مما جعل المقابلة تضفي لهيبا آخر من الاشتعال بين أسدلت وأشعلت وغدا العطر يساوي القوافي قولا وفعلا وما كان للجناس إلا أن يتم الصورة بكلمتي "دمي وفمي" لكن هندسة الشاعر فرضت نوعا آخر من الزخرفة متماهية توهم البصر بأن فاء القوافي حرف جر "في فمي" لتتصارع مع فاء الجر "في دمي" وهو غير ذلك لأن قدرة الشاعر على توظيف التصريح جعل بنية بيته محكمة البناء، فكان التوازي والتقابل والتصريح واختيار المواقع للكلمات والمناورة على المواضيع أثرا بالغيا في النفس فزادهم التصريح إحكاما وكان لتكرار الأصوات المتماثلة ترديدا في أجواء القصيدة، خلق من ضديتها صراعا نفث في إيقاعها دلالات تجعل المتلقي يدخل في مغامر السكر بالقوافي.

3- الصور: لا أكتشف سرا إن قلت إن عامر شارف يشتعل، يحترق بالقوافي ويذوب كالشمعة ليبنى مجدا خالدا إسمنته الكلمات وتسليحه الإيجاز بكل ما في الإيجاز من صور. وصوره تتحول إلى مشاهد منسعة قوامها الحركة، والضوء، واللون، والفضاء، وهي متحررة من كل القيود التقليدية وترتقي إلى درجة تجعل المتلقي ملتصقا بها ومرددا لها، وهذه بعض منها:

هل يطفئ الصبر جمرا في يدي التهبأو يطفئ الماء جرحا شابه اللهبأ؟

هل يصبح الدهر شعرا جامعا لغتي هل يبصر الشعر بوحا في فمي انسكبا؟

هل يصبح الحب للعشاق مقصلة هل يصلب الموت حبا في دمي انتصبا؟

إن هذا الخرق والخلق لمواقف التضاد الذي يلمحه كل متذوق لفن الشعر هو ما يزيد من رقعة اللهب اللغوي الذي يحدث حرائق تتسع مساحتها فتتجاوز ساحة الشاعر لتقفز إلى ساحة المتلقي الذي تنقل إليه عدوى الحريق، حريق التجربة الفنية وآلام المخاض الفني، وهي في الحقيقة عدوى الإبداع.

تبقى المفارقة قائمة في النص ويقوم الشاعر بدور الناقد الأدبي. وما تلك الأسئلة المصحوبة بالنغم المرتفع والذي تثبته وتؤكد "هل" الاستفهامية إلا تمهيدا لأسئلة الشاعر الناقد الذي يريد أن يجيب عما نسأل نحن أيضا، عن عملية الإبداع والكتابة وإنتاج الشعر؟

4- ميزة "تفاصيل الحنين"

إنها تجربة تحررت من الأسر والارتباط بالآخر، فهي تجربة فنية قائمة بذاتها ومتعلقة بمعاناة الشاعر الذي شبه نفسه بـ "سيزيف" الذي لا يكل ولا يمل أبداً فكلما زاد حريق التجربة الإبداعية ازدادت الرغبة في الإبحار في عوالم الكلمة والكتابة.

سيزيف حيك للإبحار كم رغبا ردي فإني إلى الإبحار متجسه

والحب لا يعرف الأوثان و النصبيا يا سحر لا... صلوات الحب نافلتي

ليتصور المتلقي مولودا يولد من رحم يشتعل وصاحبه يحترق! فكيف لهذا المولود أن لا يكون مستبدا أو مستفزا؟ فكذلك قصائد "تفاصيل الحنين" ولدت من اللهب ومن رحم يحترق ومن شفاه مشتعلة بجمر القوافي ولو كانت غير ذلك لأوأدها الشاعر وهو القائل:

هام القوافي البكر في إفصاحي والبوح في شفة النوى ألواحي

أحرقت كل قصيدة لم تستبد أحرقت عمري في حقول أقاح

الدكتور: عبد الرحمان تبرماسين.

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.

جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر. 2009

<http://labreception.net>